الباب الثاني

الوادي الثلاثي

٢٢ أبريل إلى ٢٤ يونيو ١٩٣٦م

الفصل الرابع

الملك في معسكره

كانت تلك أيام كآبة في الجزيرة العربية، الأيام المبكرة من ربيع عام ١٩٣٦م حينما تجمعت سحب الحرب فوق أثيوبيا واسودت أكثر بالإحساس الداخلي بالكارثة، راقب العرب بتعاطف شديد وأمل ضعيف ذلك الكفاح الشجاع لجيرانهم الأحباش لإزالة قوة فيضان الاعتداء الإيطالي. كانت كل العيون تتجه إلى بريطانيا، وكان الملك، الذي لم يتخل عن ثقته البسيطة بعزيمة بريطانيا وقوتها للتدخل، حتى عند الساعة الأخيرة، لإنقاذ الحبشة من مصيرها. في هذه الأثناء، وحالما يكون قادراً على ذلك بعد الحج، الذي تم خلال الأيام الأخيرة من فبراير، فقد انسحب من مكة إلى عشيرة حيث نصبت مدينة كبيرة من الخيام لإقامة العائلة المالكة ولاجتماع رسمي يعقده الملك.

تتبع الملك مسار الحملة الحبشية كما كانت توصف يوماً بعد يوم، ساعة بعد ساعة، بوساطة محطات إذاعات تابعة لست دول، تعلن رسائل الأمل أو اليأس، المديح أو الذم الحقيقة أو الخيال. لم يتردد الملك بقناعته بأن شيئاً ما سيحدث قبل فوات الأوان، ولم يفهم روح التهدئة التي تشبَّع بها الجو السياسي في أوروبا ذلك الوقت، والتي كانت لها قناعة في ترك إيطاليا لتحقق رغباتها مع إعلان عقوبات رتبت فقط لتتحدى ضميرها، ولكن لا تضعف مقدرتها على مغامرة عسكرية. كانت قناة السويس مفتوحة أمام سفنها الحربية وتنقل بلا تأخير أو تعطيل المؤن للحبشة، إلى جانب أن إيطاليا كانت قوة شرائية مرغوباً فيها، في سوق النفط

العالمي. لم يكن هنالك ما يهمهم كثيراً، وكان أصدقاء الحبشة -ونحن منهم- راضين بقناعة يمجدون بطولة عساكرها ويراهنون على مقدم موسم الأمطار. ولكن لم تصل الأمطار بالمرة، في نهاية الأمر، أو وصلت متأخرة جداً.

ذكرني الملك بكياسة قبل مغادرته مكة بوعده الذي أعلنه في الرياض، في شهر ديسمبر المنصرم، بأنني سأزور المناطق الجنوبية لتخطيط الحدود بين السعودية واليمن، كما وضعتها لجنة حدود مشتركة خلال العام السابق، لذلك فقد أقمت في الحجاز لإعداد أموري، والاستعداد للرحلة العظيمة المتوقعة. لم أتمكن من مغادرة مكة إلاَّ في (٢٢) أبريل للالتحاق بالملك في عشيرة. كان الطقس قد أصبح دافئاً بالفعل في السفوح الساحلية المنخفضة، وكانت الدرجة القصوى للحرارة في مكة لليوم السابق، (٩٧) درجة فهرنهايت مع درجة حرارة دنيا أثناء الليل، في حدود (٨٠) درجة ولكن، أثناء قضائي لليلتي الأولى في عشيرة، وعلى ارتفاع (٤٠٠٠) قدم فوق سطح البحر، فقد هبطت هذه الدرجة إلى (٦٢) درجة، علماً بأن الدرجة القصوى عند الظهر، وفي ظل خيمتي كانت تتأرجح إلى ما يزيد عن (٩٠) درجة خلال الأيام التالية. هبت عاصفة رعدية مع شيء من المطر على مكة خلال آخر يوم لي هناك، كما كانت هنالك أمطار في الجبال، ذلك لأنه في السيل، الطريق المطروق إلى الطائف والرياض، كان المجرى النحيل، الذي تغذيه مياه عيون شحيحة، قد امتلأ إلى حجم الوادي، إلى عرض (٢٠) ياردة ولكنه كان ضحلاً جداً.

كان سفري بأسلوب مرفّه، ووصلت إلى معسكر الملك في وقت مبكر، لفترة ما بعد الظهر، لأنصب خيمتي بجوار آبار في مجموعة خيام يشغلها موظفون عزاب ووزراء المجلس. كان لكل من صحب أسرته معه -بالطبع- معسكره

الخاص، كنا منتشرين خلال منطقة جيدة التشجير، في وادي عشيرة، وكان من بين الآبار الخمس التي تكون مورد الماء لعشيرة اثنتان فقط تعملان مع وجود خزان من الأسمنت وعمود عليه نقش يوضح تطور الحضارة في الصحراء. اختلطت السيارات التي تحتاج إلى الماء، مع الضأن والماعز والجمال وكلها في حالة متشابهة ولكن السيارات بالطبع كانت تفوز على الحيوانات وأما ملكية هذه الآبار فقد أصبحت معطلة مؤقتاً منذ اعتماد قرية عشيرة طريقاً للسيارات عبر شبه الجزيرة.

انتصبت خيمة الاستقبال الملكية الكبيرة في وسط الساحة المكشوفة حول الآبار وإلى جانب خيمة مماثلة للمائدة الكبيرة، يمكنها أن تستوعب ما يربو على (١٠٠) مدعو -وعلى مسافات منها وفي شكل دائرة- انتصبت خيام الاستقبال للأمير سعود والأمير فيصل وغيرهما من الأمراء.

كانت لنا خيمتنا ووليمتنا الخاصة بنا وكان من بين رفاقي الضيوف الشيخ عبدالله الفضل رئيس مجلس الشورى، والدكتور محمود حمودة المدير العام للخدمات الصحية وعضو سابق مهم في السياسة السورية -حكم عليه الفرنسيون بالإعدام عام ١٩٢٥م، وعاش حتى توفي طبيعياً في نوفمبر ١٩٤٢م-، والشيخ رشدي ملحس السكرتير الرئيسي في مكتب الاستخبارات بوزارة الخارجية[١]، والشيخ سليمان قابل، عمدة جدة السابق وعضو مجلس الشورى، وشقيق

(١) رُشدي الصالح ملحس من علماء وأدباء المنطقة الغربية خلال القرن الهجري الماضي، ومن ثقات الملك عبدالعزيز، ولد في نابلس وتعلم في إسطنبول، وبقي ملازماً للملك عبدالعزيز حوالي ثلاثين عاماً، ومات عام (١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م) وله العديد من المؤلفات والدراسات الخاصة بتاريخ وجغرافية شبه الجزيرة العربية. للمزيد انظر: الزركلي، **الأعلام**، جـ٣، ص ٢١ ــ ٢٢ . (ابن جريس).

الأخير، الشيخ عبدالقادر تاجر مشهور في جدة وآخرون كثيرون[١]. كنا عادة ما نتغدى ونتعشى معاً، بينما يخلو الملك عادة إلى معسكره الخاص للوجبات وإلاَّ فإن الروتين المتبع للمجلس في المدينة هو الذي يطبق. يجلس الملك صباحاً وظهراً في المجلس العام، بينما تكون هنالك جلسة ثالثة في المساء، أقل شعبية، حيث يستمع إلى قراءات دينية من الكتب وأخبار اليوم الإذاعية إلخ. . .

تأجلت القراءات الدينية، هذا الوقت، ذلك لأن الشيخ المقرئ للملك، عبدالرحمن القويز، كان مريضاً في مكة. وعوضاً عن ذلك فقد كان لنا التجربة غير العادية، وهي الاستماع إلى منوعات الراديو والتي أذاعت في إحدى المناسبات، محاضرة باللغة العبرية عن شكسبير من فلسطين، تلاها حفلة غنائية عربية تافهة، وبعد ذلك كانت تلاوة القرآن من مصر، وبعدها موسيقى غير دينية. لم ينغمس الملك أبداً في متعة الاستماع للراديو، ذلك لأن الأخبار، من كل المحطات الإذاعية، كانت تسجل وتقرأ عليه بواسطة أجهزة استقبال، غير أنه في هذه الأيام، كان بحاجة لما يشغله عن أخبار العالم. لم أخف استغرابي لوجود هذه الممارسات التافهة للشيخ عبدالله بن زاحم، أكثر العلماء السعوديين الملتزمين.

لم يكن هنالك مفر في هذه الأيام، أن تدور الأحاديث حول الحوادث المؤلمة عندما أبدت المقاومة الحبشية علامات واضحة للانهيار تحت الضربات الوحشية لقوة من الدرجة الأولى. أصبح الملك يحس بالمرارة ويتكلم بصراحة كلما تضاءلت ثقته

---

(١) سليمان وعبدالقادر أبناء أمان قابل من وجهاء وأغنياء أسر جدة، حتى إنه سار لهم شارع في جدة معروف باسمهم ولا زال يحمل الاسم نفسه حتى اليوم، انظر: محمد على مغربي. **أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر الهجري** (جدة: تهامة للطباعة والنشر، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) ص ٥٤ ــ ٦٠ (ابن جريس).

بمعجزة التدخل البريطاني. عبر الملك في أول جلسة أمكنني حضورها بعد وصولي إلى عشيرة عن نفسه بكل صراحة، بضياع الشرف والمكانة العليا الذي تعرضت له بريطانيا العظمى نتيجة لنجاح موسوليني في الحبشة. لقد حذرته حقيقة أنه لا يمكن عمل شيء لإنقاذ الحبشة على حساب التغيير العنيف الواقع في أوروبا، وأن سمعتي كرسول سياسي، قد تعززت بهذه الحوادث. أكد لي وزير في الحكومة البريطانية، في يوليو ١٩٣٥م، واستجابة لاقتراحي، أن سمعتنا في الشرق ستتضرر كثيراً إذا فشلنا في إيقاف المغامرة الإيطالية وذلك بمنعنا استخدام قناة السويس للمعتدي الواضح، بقوله: إنه لن يحدث شيء، ولن يُفْعل شيء خوفاً من تدخل اليابانيين!.

اقترح السير صامويل هور، في كلمته في جنيف، في الحادي عشر من سبتمبر ١٩٣٥م، تغييراً صحياً من القلب، بأن وضعني في الموضع غير العادي، ذلك لأنني مساند بكل قلبي، لحكومة صاحب الجلالة الملك. في رأيي كان لا بد من المخاطرة بالحرب ضد إيطاليا وذلك بإغلاق قناة السويس. لهذا يجب أن نخاطر به مهما كانت التكلفة، إذا كنا نقدر سمعتنا. ويمكن أن تكون المخاطرة بلا نتائج عكسية. وإذا كانت السلامة العامة ذات معنى، فلا بد أن تفرض على الآخرين وعن طريقنا. غير أن إيطاليا سلكت طريقها مستبشرة ولم نفعل نحن أي شيء. سافرت وزوجتي في وقت متأخر من العام إلى الجزيرة العربية بالسيارة، عبر فرنسا وإسبانيا إلى طنجة ثم على امتداد الساحل الشمالي لأفريقيا، عبر ليبيا إلى مصر. قابلنا الطليان بالاحترام واللباقة والعطف وأبدوا إعجابهم بالحصافة البريطانية وذلك برفع الستار عن مسرحية «الأرملة الطروب» في بني غازي. خلالها تمخضت الولادة الضخمة للقوتين العظيمتين فولدتا فأراً مضحكاً، وبعد أن

ابتلع السير صامويل هور كلماته الشجاعة التي قالها في سبتمبر اشترك مع م. لافال، في الإعلان المشهور الذي يشير إلى الاستسلام الأثيوبي. غير أن أثيوبيا حاربت ضد كل الظروف الثقيلة.

لا غرابة أن يحس الملك بالمرارة. سيأتي دور الجزيرة العربية نفسها بعد الحبشة. لقد بدأت أيطاليا بالفعل في تقوية مواقعها الدبلوماسية في مجلس ملك اليمن، الذي أزعجته النشاطات البريطانية في مستعمرات داخل، أو مجاورة للحدود الداخلية ناحية الصحراء. حينما هزم ابن سعود الجيش اليمني خلال حرب الستة أسابيع في ربيع عام ١٩٣٤م، واحتلاله ميناء الحديدة فإن السفن الحربية لبريطانيا وفرنسا وإيطاليا تدخلت لتنصح بالهدوء. ترك ابن سعود اليمن سالمة، بعد اقتناعه بتأكيد مطالب حدوده. تبدو الجزيرة الآن أكثر احتمالاً لأن تكون ملعباً للصراع للأطماع الأوروبية. لقد فهمتُ معنى رحلتي المخططة إلى الجنوب - بواسطتي- ولم يكن الملك يدري بأنها مهمة غير رسمية، للتجسس على الأرض. ولكن قصة تلك المغامرة لم تكن لهذا المجلد. أليست مسجلة في حوليات كتاب «بنات سبأ»[١].

لا عجب إذاً أن يحس الملك بالمرارة ولكنه محافظ دائماً على توازنه، يحكم على الحوادث والاتجاهات بالمقياس الموضوعي وبمضاعفاتها المحتملة على اهتمامات العرب. وفي حديث مثير للاهتمام، عن سياسته الخاصة وعلاقتها بالشؤون

(١) وللمزيد من التفصيلات عن زيارة فيلبي للجنوب وبخاصة بلاد اليمن، وتدوين كتابه (**بنات سبأ**)، انظر الكتاب نفسه مترجماً إلى العربية بعنوان: **بنات سبأ، رحلة في جنوبي الجزيرة العربية**. ترجمة يوسف مختار الأمين (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م) (ابن جريس).

الخارجيـة، أعلن بشكل مطلق أنه سيقف دائمـاً مع صداقته التقليـدية مع بريطانيا العظمى، ولن يدخل نفـسه تحت أي ظرف من الظروف، في تعـقيـدات سيـاسة الانتداب. استقبل الملك خبر وفاة الملك فؤاد، ملك مصر، في (٢٨) أبريل بتعابير أسف حزينة لوفاة أخ ملك، ولم يحاول أحد إخفـاء الحقيقة في أن الموت قد أزال السبب الرئيـسي للنفور الطويل بين مصـر والمملكة العربية السـعودية. لعب الملك فؤاد دوماً بفكرة أن يكون هو الخليفة وبذلك يسيطر على سياسات الجزيرة العربية، وفيما عدا تأثيره على التبادل الدبلوماسي بين البلدين، فإنه كان ضرباً من الطموح لا ضرر منه، ولن يكتب له التحقيق، وها هو أخيراً يتوقف فجأة حتى لا يكون حجر عثـرة في طريق العلاقـات الودية بين الحكومتين. لقد اسـتمعـنا إلى الحديث الإذاعي للملك الشاب فاروق في (٨) مايو، وهو اليوم الذي أفادت الأخـبار فيه، بالتوقيع في القاهرة على الاتفاقية التي تأخرت كثيراً بين مصر والمملكة العربية السعودية.

استـمرت خـلال هذه الأثناء، الحرب الحبـشيـة وفي الثاني من مايـو انتفض المجلس رعـباً لسـماعـه بهروب نقـوس من أديس أبابا إلى جيـبوتي. كـان الملك منزعجاً بحق وصرخ بغضب في وجه عصبـة الأمم، وللمرة الثانية، فقد كان ناقداً بعنف السيـاسة البريطانية فـيما يخص هذه المأساة التـعيسة. غيـر أنه بدا في اليوم التالي، وكأنه قد صرف هذا الأمر من ذهنه وفي حضرة كل من الشيخ عبدالله بن حسن والشـيخ عبدالله بن زاحم وعلمـاء آخرين قدم بنفـسه محاضـرة دينية تدور حول السلوك والواجبات والمسؤوليات والفرص التي يتوقعها من العلماء.

كان ابن سعود، حقيقة، كل شيء لكل الناس، كان قادراً خلال لحظة، وعند أقل استفزاز، أن يقود بزمام جـمهرة من رؤساء البدو، أو وزراء الدولة، أو علماء

دين، أو دبلوماسيين أجانب- دون ذكر لرفاقه المرحين خلال لحظاته العادية ومن بينهم أنا وبكل فخر. كان من بينهم السيد حمزة غوث وزير دولة بلا أعباء، وقد قام حديثاً بإرسال زوجته المفضلة إلى أهلها بالمدينة، وانضم إلى خيمة العزاب، والذي كان يشار إليه بصفة عامة، بأنه «فندق» وذلك لمقدرتها على استيعاب كل الزوار الضالين من النوع «المتحضر». لقد كرّمنا الملك في أحد الأيام، بدعوة نفسه للعشاء معنا، ولكن طباخنا المكاوي لم يقم بالواجب على المستوى، وشاركنا الملك في تعزيته لنا، بقبولنا لمستوى طعام كهذا. لم يكن لدينا ما نشتكي منه حقيقة؛ ذلك لأن كل المؤن جاءتنا من المستودع الملكي وأن مجموعتنا السورية سعت دائماً إلى إعداد وجبات سورية، التي هي أحسن ما في العالم. لقد كانت محاولاتنا للانتفاع برؤساء مكة، الذين يألفون حياة المعسكرات، هي التي نتج عنها الهبوط المؤقت لأسلوب طبخنا الذي كان في صالح الملك.

زارني في الخامس من مايو مساعدي الهندي في جدة[1]، وقمت بتقديمه للملك لينوب عني أثناء غيابي الذي سيطول في الجنوب، ثم أخذته في جولة طويلة داخل الوادي المشجر الممتع، وادي عشيرة وعلى الجانب الأيسر للوادي حيث الصخور البركانية التي تكوّنه.

لاحظت أثناء فترة ما بعد الظهر سحب عاصفة قوية، إلى الجنوب وإلى الغرب منا، والتي اتجهت فيما بعد شمالاً، تصحبها أمطار رعدية، وقبل ساعة من الغروب تحرك جدار من سحب سوداء في مواجهة الشمس الغاربة، مع ظهور قوس قزح معتدل في وسطها، منحن قليلاً عند طرفه. سبقت الجدار السحبي

(١) مساعده في إدارة مكتب شركة الشرقية المحدودة بجدة. (ابن جريس).

المتقدم زخات من رمل تدفعها الرياح مما دعانا للإسراع إلى العودة عبر حقل الصخور البركانية. لم نذهب بعيداً حينما تتابعت قطرات قليلة ثقيلة مبشرة بالعاصفة، والتي انفجرت علينا بوابل من البرد، تضرب به رؤوسنا، وتلسع أوجههنا بعنف، مما دفعنا للاحتماء بشجيرة حتى ينجلي أسوأ حالها. استمرت العاصفة حوالي الساعة وسجل قياس المطر ما مقداره نصف بوصة. أصبحت كل المنطقة متاهة من جداول جارية غير أنه لا يوجد سيل في المجرى الرئيس للوادي لا حينها ولا بعد أن توقفت العاصفة. كان مطرنا الغامر محلياً جداً، ومع ذلك وصلت تقارير عن أمطار وسيول من أنحاء عديدة مثل سدير في نجد ووادي الوجه في الطائف خلال هذه الفترة. ويتكرر مثل هذه الزيارة من حين لآخر في الجزيرة العربية في هذا الموسم، وربما يكون امتداداً للرياح الموسمية التي تصل من الهند، عند منتصف مايو. ومما شاهدت من الأحداث الغريبة قبل انفجار العاصفة كان هجرة أعداد كبيرة من العصافير والخطاف وآكلات النحل كلها كانت متجهة شمالاً إلى أسفل الوادي.

ألحقت العاصفة دماراً بمدينة الخيام الملكية، خاصة السرادق الخاص بحريم الملك. وقرر الملك نفسه بسبب ذلك، قضاء الليلة في خيمة المقابلات الشعبية، واستمرت جلسة المساء أطول مما هي العادة، وقد دار الحديث حول أحلام العشق والحب. وتناقش مثل هذه الموضوعات بصراحة تامة، وبحرية في المجتمع الرجالي في شبه الجزيرة العربية، ولا يتضمن ذلك أي إحساس بالخجل أو الشبق. اعترف الملك نفسه، أنه لم يحس بدخوله مرحلة البلوغ لكنه تزوج وعمره ١٦ عاماً، وخلال حياته عنده تجارب في الزواج أكثر مقارنة بمعظم الرجال. كما اعترف الشيخ عبدالله الفضل، والذي لم يعد شاباً كما كان، وفي نبرة من الفخر أنه قد

عبر بحلم غرامي في الليلة الماضية، وبلغ السيد حمزة الذروة لهذه القصص،بقوله إنه متـزوج من ثلاث نساء، اثنتين في المدينة والثالثـة في الرياض، ومنازله الثلاثة تحتوي أيضاً على فـتيات حسناوات من الرقيق. لقد كـان من دعاة تعدد الزوجات بحق ولكنه كـان أيضاً دبلوماسـياً. لم تتـقابل أي من زوجاته إطـلاقاً، برغم أنه خلال حجتيه الأخيرتين كان بصحبـته زوجتان وله الآن ثمانية أبناء أحياء، أكبرهم في عمر ٢٨ سنة.

تمازح الملك بعـد يوم أو يومين وبعد الغـداء، مع سلطان بن جبـر وهو أحد الأمراء من سلالة ابن رشـيد وبدافع لرغبة من الملك في عـمل شيء أفضل، حول التأنق الذي يبـديه في استخـدام سلطاته والمراهم المعطرة.. إلخ. يُقالُ الكثـير من كلمات الحق على سبيل النكتـه ولا يساورني الشك في أن الملك كان يمزح، ولكن الرمح أصـاب مقتـلاً بين مفـاصل درع الشاب المتـأنق المعطر، وقبـل أن ندرك ما حدث، تحول المزاح إلى تبـادل تعابير غاضـبة، ساخنة، وغادر سلطان الخـيمة في خزي. ولكن كل من ألقى بالحجارة بعد ظهر ذلك اليوم، كان يعيش في بيت من زجاج، وكانوا يدركون ذلك، تقدم وفد من أقرباء سلطان، وكلهم أمراء حائل إلى الأميـر سعود يلـتمسـون توسطه للصلح بين قريبـهم وعاهلهم. تزول أمـثال هذه السحب سريعـاً في الجزيرة العربية، ولم يمض وقت طويل حـتى عاد سلطان إلى الحظوة الملكية. سـقط سلطان ضحيـة حادث مذهل في صـيف عام ١٩٤٠م حين تعلقت عباءته بالعجلة الشديدة الدوران حينمـا كان يقف مع مجموعة في الرياض يفحص مضخة جديدة تحت التركـيب، تعمل بالكهرباء، وقبل أن يتمكن من إبعاد نفسه عن المكينة، كـان ذراعه على وشك أن يبتر عن جسمـه. ولحسن الحظ، فقد كان دكتور ديم التـابع للبعثة الأمريكية في البحرين -والذي نقل أخـيراً إلى شركة

آرامكو بالظهران-[١] كان في زيارة للعاصمة ولقى سلطان منه اهتماماً مدعوماً بالخبرة وعلى الفور. ظل سلطان لأيام ولأسابيع بين الحياة والموت، محتملاً الألم بصبر مدهش، كما رأيت ذلك بنفسي حين سمح لي بزيارته. سرعان ما غادرت الجزيرة العربية بعد ذلك، ربما للمرة الأخيرة، ولست أدري إذا تمكن سلطان بعد كل ذلك، من الحفاظ على ذراعه المبتورة[٢].

لقد دفعت الأحداث والتطورات الحبشية الملك إلى كآبه شديدة، وإلى أبعد الحدود، وأصبح سريع الغضب، وقد انتهت الأحداث بدمج الحبشة داخل الامبراطورية الإيطالية. وفي إحدى المناسبات، خاصة بعد حادثة سلطان، سنحت الفرصة له لأن يكون غير راضٍ عن العديد من اتباعه البدويين، مطلق بن زايد، ونافع بن فضلية، وغصاب، وخالد بن محمد بن حثلين، كل رفاقه المرحين المختارين لحملات الصيد. لقد أمر عبيده من الرقيق بحملهم جميعاً وإلقائهم في بركة من مياه راكدة، بالقرب من الآبار، وكادت أوامره أن تنفذ حينما نقضها.

كان آخر أصداء الحرب الحبشية، فيما يخص ابن سعود، هو وصول الوزير الإيطالي بجدة إلى عشيرة، السنيور برسيكو، وذلك في العاشر من مايو، وقد ارتدى أثناء سفره زياً عربياً، جرياً على عادة الدبلوماسين الأجانب حين زيارتهم إلى داخل الدولة. واجهت سيارته بعض المصاعب بالقرب من قرية السنوسية -حوالي (١٥) ميلاً من مكة- بسبب سيول كثيفة خلفتها الأمطار الأخيرة. أعدت على شرف استقباله على عجل كأنه السحر، طاولة ومقاعد، وكنت من بين

(١) تقاعد بعد سنوات قليلة ليعيش في أمريكا. (المؤلف).

(٢) بتر ذراعه، ويبدو أنه في أحسن صحة وروح عالية. (المؤلف).

المجموعة التي تناولت الغداء معه ويشرف عليها الشيخ يوسف ياسين، السكرتير السياسي الرئيسي للملك.

قابل السنيور برسيكو الملك فترة ما بعد الظهر، وغادر عشيرة قبل غروب الشمس، عائداً إلى جدة. استدعاني الملك صباح اليوم التالي لمقابلة خاصة، ليخبرني أن الوزير الإيطالي قدم له هدية من ست طائرات، يقودها طيارون عرب، أكملوا تدريبهم في إيطاليا، وذلك بمناسبة نجاح حملة الحبشة. لقد أكد الوزير للملك أن إيطاليا لا تحمل عداء للجزيرة العربية، والتي لها معها علاقات معاهدة. لقد أخبر الوزير الملك أيضاً بأن حكومة إيطاليا تفكر عقد معاهدة مع اليمن، بافتراض أنه لا اعتراض له على ذلك. وعلق قائلاً بأن عصبة الأمم ليست بأكثر من عصبة الإنجليز. استمعنا، في تلك الليلة نفسها، إلى المندوب السامي على فلسطين، يتحدث عن النمو المزعج لغياب القانون في تلك البلاد، ولمقابلة ذلك كان لا بد من زيادة القوى العسكرية البريطانية، بينما تم اعتقال حوالي (٦٠٠) شخص. هكذا كانت البدايات الصغيرة لحركة كتب لها، قبل انقضاء شهور، أن تورط بريطانيا العظمى في حرب صغيرة، أدت إلى إثارة المشاعر في الجزيرة العربية، في مرارة تعادل مرارة الحملة الحبشية التي انتهت بكارثة.

وصلتنا هذا اليوم أول شحنة من فاكهة المشمش من الطائف، وهذا تحذير صريح بأن الصيف قادم. تسلم الملك، بالمناسبة، وقبل أسبوعين، هدية من فاكهة المانجو، على مستوى أميري، من الهند، وقام بتوزيعها بين هؤلاء الذين على نقيضه، يحبون فاكهة المانجو النبيلة.

أصبحت أيام معسكر عشيرة الآن معدودة وهنالك حركة دائمة قدوماً ورواحاً، للموظفين، لترتيب الشؤون الختامية للدولة، بما في ذلك الكم الضخم

للمواصلات الذي يحتاج إليه لحمل عائلة الملك وحاشيته إلى الرياض. ومن ناحيتي، فلدي أعمال كثيرة للقيام بها مع يوسف ياسين، ووزير المالية، قبل مغادرتي للجنوب، وقد كانت هذه الأيام أيام حركة قلقة. غادرت عشيرة في اليوم الثاني عشر من مايو، متجهاً إلى مكة وجدة، لوضع اللمسات الأخيرة لبعض الأعمال، ولم أرجع إلاَّ عند منتصف النهار في اليوم السابع عشر. كان وادي السيل لا يزال يحمل مياه السيول الجارية وعلى حوافه نبات الزعتر العطري، وغطاء نباتي ثري. كانت الفراشات والجندب مرحة حوله. كان وادي فاطمة بين مكة وجدة، ممتلئاً بمياه السيول أيضاً وكان عليَّ أن أتحاشى الطريق الرئيس لأجد موقعاً ضحلاً. كان عليَّ أن أقابل العديد من الناس في جدة. وكان لدي، القليل من الوقت للاستمتاع بمراعي الربيع على السهل الساحلي، الذي تحول الآن إلى بساط أخضر جميل.

لاحظت في طريقي للعودة عند الهدا أن معظم الطيور المهاجرة قد اتجهت شمالاً بالفعل أو كانت على وشك أن تفعل ذلك. وقد تمكنت من رؤية طائر صفارية منفرد بينما كانت هنالك أعداد كبيرة منه قبل شهر. تناولت في مكة ثمار الباباي اللذيذة من داخل حديقة عبدالله بن سليمان الغنية، وعقدت معه عدة لقاءات، وكذلك مع يوسف ياسين، وغيرهما من أمثالي الذين حضروا إلى هنا لإنجاز أعمال مهمة قبل مغادرة الملك المعسكر إلى الرياض. وجدت كل المعسكر، عند عودتي له في عشيرة في حالة نشاط عظيم، استعداداً للمغادرة في الصباح.

صحوت عند الساعة الخامسة صباحاً في اليوم التالي، لأكمل ترتيب أموري للرحلة التي ستستغرق تسعة أشهر. كل شيء كان على استعجال، صخب لعربات مزعجة وإناس يصرخون. بدأ الأمير سعود عند الساعة التاسعة صباحاً، التحرك

نحـو الرياض، على رأس أسطول ضـخم من السـيـارات حـاملة الأسـرة المالكة والحاشية. وتحرك الملك عند الساعة العاشرة صباحاً مع حاشيته الخاصة متوجهاً إلى بئر محدثـة القريب من هنا أسفل الوادي، وأزيلت مدينة الخيام العظـيمة وسويت بالأرض، إلاَّ من قرية صـغيرة من عـدد من الخيام، لإيواء الذين تخلـفوا لتنظيف المكان. وانشغل الذين جـاءوا من مكة وجدة لوداع الملك بتجـهيز أنفسـهم للعودة إلى أوطانهم، فسـيذهب حمـزة غوث إلى المدينة، وسيـذهب رشدي ملحس إلى سوريا في إجـازته السنوية. انتظرت حتـى تناولت الغداء في هدوء، عند السـاعة العاشرة والنصف، قبل أن أرسل سياراتي إلى المعسكر الجديد للملك، بينما قررت أن أسير على قدمي أسفل الوادي (حوالي ١٥ ميلاً).

لقد قمت بتـوظيف دليلٍ اسمه سعيـد بن حسين من المقطة (عتيبـة) لمرافقتي لهذا الغرض، فهو قد وُلد وترعرع في هذا الوادي. تحركنا معاً عند الساعة الحادية عـشرة والنصف وأمـامنا اليـوم بكامله. كنا نتـبع بطن الوادي دائمـاً أو السفـوح البركانية الحممية على جانبه، ووصلنا بعد انطلاقة ساعتين بسهولة إلى ثقوب مائية ضحلة تسـمى دسيم كان عمق الماء فـيها عند خمـسة أقدام فقط. شـمخت على البعد، ومن ورائنا، القمم العظيمة لسلسلة جـبال الحجاز حبلة، ودكة، وقرنيت، بينما تلوى الـوادي فوق بروزات حرة ألبس وهي حـقل بركاني[١]، والتي أحياناً تفيض فوق جانب الوادي الأيمن، تاركة، أحـياناً مجرى لا يزيد عرضه عن (٣٠) ياردة ليجري فيه السيل. مررنا هنا وهناك بمعسكرات تابعة لمقطة مكونة من أكشاك بسيطة وأخبرني دلـيلي في سرية بأنه قد فقد والده وأخاه وخاله فـي القتال المتقطع الذي سبق دخول الطائف، في سبتمـبر ١٩٢٤م. بدأنا نرى وعلى البعد الآن خيام

(١) حرة ألبس تقع في حرة الروقة العتيبية. (ابن جريس).

الملك في محـدثة، ووصلنا إلى الثقـوب المائية، في مـويجيحـة في بطن الوادي. شاهدنا جحراً لحـيوان النيص (الشيهم) وبعض مخلفات وآثـار كشط الظهر لأحد الذئاب، وذلك في حقل صخور بركانية مباشرة تلي هذه الثقوب المائية.

لقد كانت هذه بلاد موحشة، مهجورة برغم الشريط الأخضر العريض للوادي كثير الشـجر الذي يطوق حافاتها. وصلنا إلى المعسكر عند آبار مـحدثة في الساعة الخامـسة مـساء. بدت الآبار في عـددية واضحة، برغم أن الـكثير منهـا لم يكن يستخدم، وكان عمق الماء يتراوح مـا بين خمس قامات إلى ست قامات، ويقولون إنها مـياه أحسن من ميـاه عشيـرة حيث يبلغ عمق الماء هناك في المتـوسط خمس قامات، ومياهها حلوة وبذلك فهي كمياه الأمطار، كما صرح دليلي. من الأفضل أن يُطلق على وادي عشيرة اسم وادي العقيق الذي يجري من الطائف إلى المدينة. تنتمي كل هذه المناطق إلى مـجموعة برقا التـابعة لقبيلة عـتيبة ولهذه الـقبيلة تحت أقسام رئيسة تنتشر من عند حقول الحـمم البركانية في حرة ألبس في فصل الشتاء، ويقضـون فصل الصيف في الوادي، وتحت الأقـسام هذه هي: المقطة، العصـمة، الشيابين، قريش، القثمة[١].

كان كل شيء جاهزاً لانطلاقة رحلتي العظيمة، وقـد أذاعت الهيئة البريطانية في الوقت المناسب رسالة سـلام إلى العالم، قدمـها فريق من تلامـيذ ويلز الذين بدؤوا نشيدهم، بتقدير لكل المستكشفين. كان شعارهم «لا تستسلم». وقد وجدته شعاراً مناسبـاً تماماً لظروفي المباشرة الخاصة. نهضت عند السـاعة الثالثة والنصف

(١) الصحيح أن أقسام برقا هي: الدعاجين، الدغالبة، الروسان، الشيابين، العصمة، القثمة، المقطه، النفعة. (ابن جريس).

في ذلك الصباح لأداء صلاة الفجر مع مجموعة الملك، ثم تشاركنا القهوة والحليب، حتى شارف الوقت على الساعة الخامسة، حينها خرج الملك في رحلة صيد. تلقيت منه خلال ذلك الوقت، تعليماته النهائية وتبريكاته على مغامرتي وبعد مغادرته كنت في حرية للبدء متى رأيت ذلك.

طلب مني الملك قبل أيام، ونحن في عشيرة، أن أعد له كتابةً، برنامجاً مبدئياً لتحركاتي التي أزمع القيام بها، وكان البرنامج الذي أعددته كما يلي:

(٣) أيام في الخرمة	(٣٠) إلى (٤٥) يوماً في نجران
(٥) أيام في رنية	(٣٠) يوماً في أبها (عودة)
(٣) أيام في بيشة	(١٥) يوماً من أبها إلى جازان
(١٠-١٥) يوماً في أبها	(١٥) يوماً حدود تهامة
(٣) أيام في تثليث	(٣٠) يوماً رحلة العودة إلى الطائف

كان مجموع الأيام يتراوح بين (١٤٤) إلى (١٦٤) يوماً، أو حوالي خمسة أشهر ونصف الشهر، أو قل ستة أشهر متضمنة الترحال الداخلي بين الأماكن المبينة. وأضافت ظروف غير متوقعة زيادة تقدر بـ (٥٠٪) لبرامج الرحلة، وكاد أحد هذه الظروف غير المتوقعة أن يعطل الرحلة كلها. أحضر زائر من نجران، قبل وقت من تنفيذ هذا البرنامج رأس أسد من البرونز تم العثور عليه في حفريات غير رسمية في تلك المنطقة. ورفعه الملك إلى الأمير سعود، الذي كلفني بأن أقوم ببيعه نيابة عنه في لندن، وقد قمت بإرساله بالفعل مع زوجتي، حين مغادرتها من جدة، بفكرة تقديمه إلى المتحف البريطاني. اعترض يوسف ياسين، حين سمع

بذلك، وبشدة، على إرسال هذا التراث الغالي إلى خارج الجزيرة العربية، باعتقاد أنه ذو قيمة خرافية وليس من المحتمل أن يقوم المتحف البريطاني بتقديره على قيمته الحقيقية. لقد تشاجرنا بجدية حول هذا وقد تمكن من إقناع الأمير سعود بإعادة الرأس له. فعل الأمير هذا بلباقة مدهشة، غير أنني أجبته بأن الرأس كان بالفعل في طريقه إلى لندن، ولكنني سألغي توجيهاتي الخاصة ببيعه. انتهى الأمر هنا، عند هذا الحد ولفترة، غير أن يوسف ياسين أثار اعتراضاً آخر مع الملك حول مشروع رحلتي: بأنني ربما أقوم بسرقة كنوز أخرى من نجران. كان للملك أسبابه الخاصة لرؤيتي أنفذ السفر، وسافرت، بينما استراح رأس الأسد في المتحف البريطاني «مستلفاً» من جانب الأمير سعود[1].

(١) ومن يتجول في متاحف أوربا وأمريكا، وكذلك مكتباتها الرئيسة يجد الشيء الكثير من تراث البلاد العربية والإسلامية، كان قد سرق أو بيع أو نقل إلى هناك بطرق عديدة. وللأمانة أن نقله إلى تلك البلاد كان خيراً للإسلام والمسلمين حيث حفظ ورُقِّم، وتم الاعتناء به على أحسن وجه، مع العلم أنه لو بقي في مواطنه الأصلية لضاع واندثر. (ابن جريس).